

11-07-2013

الثقافية

مداخلات لغوية

التائهون

أبو أوس إبراهيم الشمسان



هذه آخر رواية لأمين معلوف الذي كان لابني أوس فضل تعريفني بأعماله وتزويدي ببعضها، وهذه منها، إنها رواية تحكي قصة مجموعة من الشباب الذين جمعتهم الدراسة الجامعية، وهم ينتمون لديانات مختلفة، وتفرقت بهم السبل، ولكن موت أحدهم كان مناسبة لاجتماعهم من مختلف أنحاء العالم، يطرح فيها معلوف مشكلات العالم المشرقي بخاصة ومشكلات العالم عامة، وهو همّ طرحه بأشكال مختلفة وجدناه في أعمال فكرية مثل (الهويات القاتلة) و(اختلال العالم)، وأنا على ثقة أن القارئ المنصف سيعجب بهذه الرواية الرائعة في شكلها ومضمونها، وليس يخل بها سوى ضعف لغة مترجمة الرواية في بعض أجزائها، ولعل من المفيد أن أنقل بعض ما جاء على لسان بعض الشخصيات، قال (رامز) «منذ سنوات، استيقظ كل صباح ممزقاً بين شعورين، الأول هو الشعور بالفرح والثاني هو الشعور بالحزن. الفرح لأنني نجحت في مهنتي، وكسبت الكثير من المال، ولأنني أمتلك بيتاً جميلاً وحياة عائلية سعيدة، ولكن الحزن أيضاً لأنني أرى قومي في أسفل الهاوية، فمن ينطقون بلغتي، ومن يعتنقون ديانتني، يحرقون في كل مكان، وغالباً ما يتعرضون للكرهية. لأنني أنتمي، بحكم الولادة، إلى حضارة مهزومة، وإذا لم أشأ التكر لأصلي، فأنا محكوم علي بالعيش معه

هذه الوصمة على جبيني... لا يتعلق الأمر فقط بالتضامن مع قومي، أو بالتعاطف معهم. إنني أشعر بالمهانة، أشعر بالمهانة شخصياً. حين أسافر إلى أوروبا، أعامل بمراعاة مثلما يعامل جميع الأثرياء. يتنسم لي الناس، يفتحون لي الأبواب وهم ينحنون احتراماً، يبيعون كل ما أربح بشرائه. ولكنهم في أعماقهم يكرهونني ويحتقرونني. فليست بالنسبة إليهم سوى همجي أصاب ثروة. وحتى عندما أرتدي أجمل بدلة إيطالية، أظل في نظرهم، معنوياً، فقيراً معيماً. لماذا؟ لأنني أنتمي إلى شعب مهزوم، وإلى حضارة مهزومة. أشعر بذلك أقل بكثير في آسيا، وفي أفريقيا، أو في أمريكا اللاتينية، التي أساء التاريخ معاملتها أيضاً. ولكن يملكني ذلك الشعور في أوروبا... في باريس، حين تتكلم العربية في مكان عام، ألا تنزع إلى تلقائي إلى خفض صوتك؟... انظر إلى الأجانب الآخرين! الإيطاليين، والإسبان، والروس، بغض النظر عن الإنكليز أو الأمريكان إنهم لا يخشون أن يحدجهم الآخرون بنظرة عدائية، أو مستنكرة. ربما أتهياً أموراً لا أساس لها من الصحة، ولكن هذا ما أشعر به، وحتى لو أصبحت أغنى رجل في العالم، فلن تتغير الأمور».

الرواية جديرة في نظري بالقراءة ليس لما تسرده من أحداث وتفاصيل، قد لا تعجب بعض القراء مع أنها واقعية أي من الأمور التي يمكن أن تحدث في الواقع المعيش في بعض البيئات؛ بل لما يدور بين شخصوها من حوارات وحجاج عجيب، وما تلخصه من مسالك التيه الذي تفرقت به الناس وضلت طريقها، وهي صورة من حال المجتمعات المشرقية التي ما زالت تائهة لم تستطع أن تجد لنفسها مكاناً في حضارة اليوم، وهي تتخبط في سياساتها، وتغرق في هزائمها، يستعبد لها الاستهلاك لقديمها أولجديد ليس لها من يد في ابتكاره.

